المقاصد العامة للقرآن الكريم

د٠ عبد الرحمن حمد عبدالله القحطانى (*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الهادي الأمين، والسراج المبين، محمد بن عبد الله عليه أفضل صلاة، وأزكى تسليم، وعلى آله وصحبه، ومن استنّ بسنته، واقتفى أثره إلى يوم الدين، وسلّم تسليماً كثيراً، وبعد:

أما بعد..

فإنَّ أجلّ ما صرفت فيه الجهود، وأفنيت فيه الأعمار، ووجهت إليه الهمم كتاب الله ﷻ الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(١)، فقد اجتهد العلماء في تفسيره وبيان معانيه، واستنباط أحكامه، وتوضيح مقاصده، جيلًا بعد جيل، وعصرًا بعد عصر؛ فالاشتغال بالقرآن الكريم والسنة النبوية، والتفقه فيهما من أشرف الغايات وأسمي المقاصد التي ينبغي للعبد أن يسعي إليها في حياته كلها، ومن أشرف ذلك، بيان المقاصد الشرعية واستنباطها من القرآن الكريم؛ إذ هو مقدم علي غيره من العلوم، نظرا لحاجة المسلمين إليه ، فقام علماء المسلمين منذ القرون الأولي بهذه المهمة خير قيام ؛ فحفظوا الدين كتابا وسنة، واستنبطوا الأحكام الشرعية مباركة كما هو مشاهد في تلك الآثار التي خلفوها للأمة، وكان لهم فضل عظيم، ومكانة رفيعة، لولاهم – بعد الله عز وجل ورسوله الكريم سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– لما عرفنا هذا الدين حق المعرفة، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء. ومن أهم

(*) موجه فنى (شرعى) إدارة التوجيه الفنى العام– وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية دولة الكويت .

(١) سورة فصلت، الآية (٤٢) .

المناهج والطرق التي ينبغي أن نتعامل بها مع القرآن الكريم، هي طريقة فهم أهدافه وغاياته ومقاصده ، فلن نستطيع أن نستلهم هدايات القرآن إلا بمعرفة مراداته منا، وهذا لا يتأتى إلا بفهم مقاصده؛ لذا كان لا بد من تفسير القرآن تفسيرًا مقاصديًا؛ حيث إن الاجتهاد المقاصدي في التفسير هو محاولة لتمرير المعني والربط بينه وبين الحياة واستخلاصه من الرواسب التي طغت عليه ومحاولة النزول بالمعني المعقول إلى الواقع ودفع المعني لأفق جديد . لذا اخترت بحثي الذي يحمل عنوان: " **المقاصد العامة للقرآن الكريم**".

منهج البحث :

لقد استخدمت المنهج الاستقرائي الاستنباطي لتتبع المقاصد العامة في القرآن الكريم، كما استخدمت المنهج التحليلي لتحليل تلك المفردات وتوظيفها؛ حيث أقوم باستقراء المقاصد في القرآن الكريم وتطبيقها وبيان وجه الدلالة من القرآن على المقاصد الشرعية والربط بين مقاصد الشريعة الإسلامية وتفسير القرآن الكريم.

خطة البحث :

لقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة، على النحو الآتى:

- **المقدمة وفيها:** أهمية الدراسة ، والمنهج المستخدم، وخطة البحث.
- **المبحث الأول:** مقاصد القرآن الكريم في إصلاح الاعتقاد.
- **المبحث الثاني:** مقاصد القرآن الكريم في تهذيب الأخلاق وتزكية النفس.
- **المبحث الثالث:** مقاصد القرآن الكريم في التشريع.
- **المبحث الرابع:** مقاصد القرآن الكريم في التحذير والتبشير.
- **الخاتمة.**

المبحث الأول

مقاصد القرآن الكريم في إصلاح الاعتقاد

إن إصلاح الاعتقاد وتعليم العقيدة الصحيحة من المقاصد العامة للقرآن الكريم، بل هي من أهم مقاصد القرآن الكريم فلا قيمة لغيرها من المقاصد إذا عبد غير الله تعالى ، أو اختلط إسلام المسلمين بشرك ربما يخرجهم من دائرة الإسلام – ونعوذ بالله من ذلك – لذلك نجد كثيراً من المفسرين قد بينوا هذا المقصد في كلامهم وتفسيرهم لكتاب الله في غير موضع .

فها هو الإمام ابن عاشور– رحمه الله– يعدد المقاصد العامة للقرآن الكريم ويذكر من بينها : إصلاح الاعتقاد وتعليم العقيدة الصحيحة فيقول – رحمه الله:

"إن القرآن أنزله الله تعالى كتابًا لصلاح أمر الناس كافة؛ رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى: { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ } [1] ، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية، فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير....."[2].

ثم يستطرد قائلاً : "إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق؛ لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ

---

(١) النحل : الآية (٨٩).

(٢) التحرير والتنوير ٣٨/١.

ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾} [1] فأسند لآلهتهم زيادة تثبيتهم، وليس هو من فعل الآلهة ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة"[2].

وإذا تدبرت القرآن الكريم وجدت كثيرًا من آياته تهدف إلى إصلاح الاعتقاد وتعليم العقيدة الصحيحة، فآيات القرآن التي تتحدث عن إرسال الرسل إلى أقوامهم وإقناعهم بتخليهم عن عقيدتهم الفاسدة، وتحليهم بالعقيدة الصحيحة مثل كثير من الآيات[3] التي تتحدث عن سيدنا موسي- عليه السلام- وهو يدعو فرعون – لعنه الله- وقومه إلى تخليهم عن عقيدتهم الفاسدة من ادعاء الألوهية، والإيمان به كإله، والإيمان بالله وحده لا شريك له ، ودعوته أيضًا إلى ترك عبادة العجل من دون الله .

وكذلك الآيات [4] التي تتحدث عن سيدنا عيسي – عيه السلام – وعبادة قومه له من دون الله، ودعوته قومه لنبذ هذه العقيدة الفاسدة ، والإيمان بالله الواحد الذي أرسله ، وغير ذلك الكثير والكثير مثل قوم نوح – عليه السلام – الذين كانوا يعبدون الأصنام من دون الله، ويعتقدون أنها تنفع وتضر من دون الله، وقوم إبراهيم – عليه السلام – ، وقوم سيدنا محمد – صلي الله عليه وسلم، بل ربما نجد أن في القرآن الكريم سورًا كاملة اقتصرت على إصلاح الاعتقاد أو تعليم العقيدة الصحيحة ، أو غلب عليها ذلك ، وهذا مما أشار إليه كثير من المفسرين

(١) هود :الآية (١٠١).

(٢) التحرير والتنوير ١/٤٠.

(٣) طه : الآيات (٢٤-٩٨) ، الشعراء : الآيات(١٠-٦٨) ، النازعات : الآيات(١٥-٢٥)، وغيرها الكثير والكثير.

(٤) المائدة : الآيات(١١٥-١١٧) ، مريم : الآيات(٢٨-٣٦) ، الزخرف : الآيات (٦٣-٦٥)، وغيرها الكثير والكثير.

في تفاسيرهم، ومنهم الإمام ابن عاشور – رحمه الله– حيث يقول في مقصد سورة الكافرون بعد أن ذكر سبب النزول :

ما"حكاه الواحدي في «أسباب النزول»، وابن إسحاق في «السيرة»، أن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– كان يطوف بالكعبة، فاعترضه الأسود بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل. وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد سنة، وتعبد ما نعبد سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه. فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره. فأنزل الله فيهم: قل يا أيها الكافرون السورة كلها، فغدا رسول الله– صلى الله عليه وسلم– إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقرأها عليهم، فيئسوا منه عند ذلك، (وإنما عرضوا عليه ذلك لأنهم رأوا حرصه على أن يؤمنوا، فطمعوا أن يستنزلوه إلى الاعتراف بإلهية أصنامهم) .

وعن ابن عباس[1] قال: فيئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه.

---

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس: حبر الأمة ، الصحابي الجليل. ولد بمكة سنة ٣ قبل الهجرة، ٦١٩م، . ونشأ في بدء عصر النبوّة، فلازم رسول الله– صلّى الله عليه وسلم– وروى عنه الأحاديث الصحيحة. وشهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها. له في الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثًا. وقال عطاء: كان ناس يأتون ابن عباس في الشعر والأنساب، وناس يأتونه لأيام العرب ووقائعهم، وناس يأتونه للفقه والعلم، فما منهم صنف إلا يقبل عليهم بما يشاءون. وكان كثيرًا ما يجعل أيامه يوماً للفقه، ويوماً للتأويل، ويومًا للمغازي، ويومًا للشعر، ويومًا لوقائع العرب. وكان عمر إذا أعضلت عليه قضية دعا ابن عباس وقال له: أنت لها ولأمثالها، ثم يأخذ بقوله ولا يدعو لذلك أحدًا سواه. وينسب إليه كتاب في " تفسير القرآن " جمعه بعض أهل العلم من مرويات المفسرين عنه في كل آية، فجاء تفسيراً حسنًا. توفي بالطائف سنة٦٨هـ– ٦٨٧م. الأعلام للزركلي ٩٥/٤.

وبهذا يعلم الغرض الذي اشتملت عليه، وأنه تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال، وأن دين الإسلام لا يخالط شيئًا من دين الشرك."[١] .

و ذكر كذلك –رحمه الله – مقصد سورة الإخلاص فقال :

"إثبات وحدانية الله تعالى ، وأنه لا يقصد في الحوائج غيره، وتنزيهه عن سمات المحدثات.

وإبطال أن يكون له ابن ، وإبطال أن يكون المولود إلهًا مثل عيسى عليه السلام."[٢]

ولا يفوتنا أن نختم بما ذكره الإمام البقاع– رحمه الله – في حديثه عن سورة النساء، فقال:

"مقصودها: الاجتماع على التوحيد، الذي هدت إليه سورة آل عمران ، والكتاب الذي هدت إليه سورة البقرة، لأجل الدين الذي جمعته الفاتحة ، تحذيرًا مما أراده شاس بن قيس وأنظاره من الفرقة.

ولما كان مقصودها الاجتماع على ما دعت إليه السورتان قبلها من التوحيد، وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل – عادة – الأرحام العاطف التي مدارها النساء، سميت "سورة النساء". لذلك، ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد"[٣].

وأكد ذلك– رحمه الله – فقال: "فمقصود القرآن، تعريف الخلق بالملك، وبما يرضيه "[٤] ، أي تعريف الخلق بأن الله هو القادر الرازق ....وهو المستحق

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٨٠

(٢) المرجع السابق٣٠/٦١٢.

(٣) مصاعد النظر للإشراف علي مقاصد السور ٢/٨٨،٨٩.

(٤) المرجع السابق ١/٢١٠.

للعبادة وحده ، دون غيره من الشركاء والأنداد ، ودلالتهم على طريق ذلك ، فإن في ذلك رضاه ، قال تعالى: { إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ } (١).

* *

(١) الزمر : الآية (٧).

المبحث الثاني

مقاصد القرآن الكريم في تهذيب الأخلاق و تزكية النفس

إن القرآن الكريم قد احتوى على مقاصد عامة هامة، منها تهذيب الأخلاق، والدعوة إلى تزكية النفس البشرية، وهذا ما ذكره الإمام ابن عاشور– رحمه الله – في تفسيره التحرير والتنوير؛ حيث يقول :

"تهذيب الأخلاق قال تعالى: { وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ } [1]، وفسرت عائشة[2] رضي الله– تعالى – عنها لما سئلت عن خلقه– صلى الله عليه وسلم– فقالت: كان خلقه القرآن"[3]،"[4].

---

(١) القلم : الآية (٤).

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق، عبد الله بن عثمان، من قريش، أفقه نساء المسلمين، وأعلمهن بالدين والأدب. كانت تكنى بأم عبد الله، تزوجها النبي – صلى الله عليه وسلم– في السنة الثانية بعد الهجرة، فكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه، ولها خطب ومواقف، وما كان يحدث لها أمر إلا أنشدت فيه شعراً. وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض فتجيبهم. وكان مسروق إذا روى عنها يقول: حدثتني الصديقة بنت الصديق. وتوفيت في المدينة. روي عنها ٢٢١٠ أحاديث. ولبدر الدين الزركشي كتاب (الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة) ولسعيد الأفغاني كتاب عائشة والسياسة، ولزاهية مصطفى قدورة كتاب : عائشة أم المؤمنين. الأعلام للزركلي ٣/٢٤٠.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مسند النساء ، مسند عائشة بنت الصديق – رضي الله عنها– ، إسناده صحيح على شرط الشيخين، عبد الرزاق: هو ابن همام الصنعاني، ومعمر: هو ابن راشد، (٤٢/١٨٣ح٢٥٣٠٢).

(٤) التحرير والتنوير ١/٤٠.

وهذا ما أكده العلامة محمود شلتوت[1] – رحمه الله – في كتابه إلى القرآن الكريم، حيث قال :

"إن مقاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث : ناحية العقيدة ، وناحية الأخلاق، وناحية الأحكام .... والأخلاق : تهذب النفس وتزكيها، وترفع من شأن الفرد والجماعة ، وتقوي عرى التآخي والتعاون بين بني الإنسان، وتشمل: الصدق، والصبر، والوفاء بالعهد، والحلم، والجود، والرحمة، وغيرها مما يحقق في الإنسان ثمرة إيمانه بالله وصفاته التي يجب أن يكون عليها عباده "[2] .

والناظر في كتاب الله – تعالى– يجد أن آيات كثيرة من كتاب الله – تعالى– قد عنيت بجانب الأخلاق وتهذيب النفس البشرية، وذلك نراه واضحًا في تشريع الشارع للعبادات، ففي الصلاة قال تعالى: { اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ }[3] .

---

(١) محمود شلتوت: فقيه مفسر مصري. ولد في منية بني منصور (بالبحيرة) سنة١٣١٠هـ– ١٨٩٣م، وتخرج في الأزهر سنة ١٩١٨م، وتنقل في التدريس إلى أن نقل للقسم العالي بالقاهرة سنة ١٩٢٧م، ثم عين وكيلا لكلية الشريعة، ثم كان من أعضاء كبار العلماء سنة١٩٤١م ، ومن أعضاء مجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٦م، ثم شيخا للأزهر سنة ١٩٥٨م إلى وفاته سنة ١٣٨٣هـ– ١٩٦٣م. وكان خطيباً موهوباً جهير الصوت. له ٢٦ مؤلفاً مطبوعاً منها : حكم الشريعة في استبدال النقد بالهدي، والقرآن والمرأة، والقرآن والقتال، وهذا هو الإسلام، والإسلام والتكافل الاجتماعي، والدعوة المحمدية، والإسلام عقيدة وشريعة. الأعلام للزركلي ١٧٣/٧.

(٢) إلي القرآن الكريم : للعلامة محمود شلتوت، الناشر: دار الشروق ، د ط ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م ، ص٥،٦.

(٣) العنكبوت : الآية (٤٥).

حيث يقول العلامة ابن عاشور – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية السابقة :

"وأمره بإقامة الصلاة؛ لأن الصلاة عمل عظيم، وهذا الأمر يشمل الأمة، فقد تكرر الأمر بإقامة الصلاة في آيات كثيرة، وعلل الأمر بإقامة الصلاة بالإشارة إلى ما فيها من الصلاح النفساني، فقال: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فموقع (إن) هنا موقع فاء التعليل، ولا شك أن هذا التعليل موجه إلى الأمة؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – معصوم من الفحشاء والمنكر، فاقتصر على تعليل الأمر بإقامة الصلاة دون تعليل الأمر بتلاوة القرآن؛ لما في هذا الصلاح الذي جعله الله في الصلاة من سر إلهي لا يهتدي إليه الناس إلا بإرشاد منه تعالى، فأخبر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والمقصود أنها تنهى المصلي....."[1].

ثم يستكمل كلامه قائلاً :

"والوجه عندي في معنى الآية: أن يحمل فعل تنهى على المجاز الأقرب إلى الحقيقة، وهو تشبيه ما تشتمل عليه الصلاة بالنهي، وتشبيه الصلاة في اشتمالها عليه بالناهي، ووجه الشبه أن الصلاة تشتمل على مذكرات بالله، من أقوال وأفعال من شأنها أن تكون للمصلي كالواعظ المذكر بالله– تعالى– إذ ينهى سامعه عن ارتكاب ما لا يرضي الله ، وهذا كما يقال: صديقك مرآة ترى فيها عيوبك. ففي الصلاة من الأقوال تكبير لله، وتحميده وتسبيحه، والتوجه إليه بالدعاء والاستغفار وقراءة فاتحة الكتاب، المشتملة على التحميد والثناء على الله، والاعتراف بالعبودية له، وطلب الإعانة والهداية منه، واجتناب ما يغضبه وما هو ضلال، وكلها تذكر بالتعرض إلى مرضاة الله والإقلاع عن عصيانه وما يفضي إلى غضبه، فذلك صد عن الفحشاء والمنكر.

(١) التحرير التنوير ٢٠ /٢٥٨.

وفي الصلاة أفعال هي خضوع وتذلل لله- تعالى- من قيام وركوع وسجود، وذلك يذكر بلزوم اجتلاب مرضاته، والتباعد عن سخطه. وكل ذلك مما يصد عن الفحشاء و المنكر.

وفي الصلاة أعمال قلبية، من نية واستعداد للوقوف بين يدي الله، وذلك يذكر بأن المعبود جدير بأن تمتثل أوامره وتجتنب نواهيه.

فكانت الصلاة بمجموعها كالواعظ الناهي عن الفحشاء والمنكر، فإن الله قال تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولم يقل تصد وتحول ونحو ذلك مما يقتضي صرف المصلي عن الفحشاء والمنكر.

ثم الناس في الانتهاء متفاوتون، وهذا المعنى من النهي عن الفحشاء والمنكر هو من حكمة جعل الصلوات موزعة على أوقات من النهار والليل؛ ليتجدد التذكير وتتعاقب المواعظ، وبمقدار تكرر ذلك تزداد خواطر التقوى في النفوس، وتتباعد النفس من العصيان، حتى تصير التقوى ملكة لها. ووراء ذلك خاصية إلهية جعلها الله في الصلاة يكون بها تيسير الانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

روى أحمد، وابن حبان، والبيهقي عن أبي هريرة قال: «جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: إن فلانا يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، فقال: سينهاه ما تقول» أي صلاته بالليل"[1].

والزكاة، فالمقصد منها تزكية النفس كما قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾} [2].

وكذلك الصيام، فالمقصد منه تحقيق التقوى، كما قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) المرجع السابق ٢٠/٢٥٩، ٢٦٠.

(٢) التوبة :الآية (١٠٣).

ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾} [1].

وكذلك الحج لقوله تعالي: {ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾} [سورة البقرة:١٩٧].[2]

فمن حج بيت الله فلم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

فنجد أن تشريع جانب العبادات في كتاب الله – عز وجل – كان المقصد الأسمى منه هو تهذيب الأخلاق وتزكية النفس ، وليس ذلك مقصورًا على جانب العبادات فحسب، بل إن كل نبي بعث لقومه بعد دعوته لهم لعبادة الله كان يهذب أخلاقهم، ويزكي نفوسهم، ويعالج فيهم داء أخلاقيًا، وذلك واضح في كثير من الآيات القرآنية ، فعلى سبيل المثال لا الحصر :

– نبي الله لوط، عالج في قومه الشذوذ الجنسي، حيث يقول لقومه على لسان القرآن: {أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾} [سورة الشعراء:١٦٥]. [3].

– نبي الله شعيب – عليه السلام – يعالج داء تطفيف الميزان؛ حيث يقول لقومه: { ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾} [سورة هود:٨٤]. [4] .

---

(١) البقرة : الآية (١٨٣).

(٢) البقرة : الآية (١٩٧).

(٣) الشعراء : الآيات (١٦٥–١٦٩) .

(٤) هود : الآيات (٨٤–٨٦).

وغيرهم الكثير والكثير، فنجد اهتمام القرآن الكريم بذكر الجانب الأخلاقي للأمم السابقة، وما حل بهم من عذاب الله تعالى؛ تنبيهًا لأمة محمد أن لا تنحو نحو هذه الأمم في مثل هذا الجانب؛ لذلك يذكر القرآن الكريم في نهاية قصة سيدنا لوط – عليه السلام فيقول: {فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾} [سورة هود:٨٢-٨٣].[1] ، وكذلك في نفس السورة يقول بعد بيان الجانب الأخلاقي السيئ لأقوام الأنبياء وما نزل بهم من العذاب ، ينبه أمة سيدنا محمد – صلي الله عليه وسلم – لذلك فيقول : {ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾} [سورة هود: ١٠٠-١٠٣]. [2] .

وكذلك كثير من الآيات الآمرة بالتحلي بمكارم الأخلاق؛ مثل الصدق، والوفاء بالعهد ، والرضا ، وبر الوالدين، وحسن الخلق ، والتكلم بالكلمة الطيبة، والتنفير من مساوئ الأخلاق مثل الجبن ، والغضب ، وإطلاق النظر ، والغيبة، والنميمة ، وغيرها الكثير والكثير من آيات القرآن الكريم ، مما يشعر القارئ، والسامع ، والمفسر لكتاب الله – عز وجل – بأن تهذيب الأخلاق وتزكية النفس مقصد مهم من مقاصد القرآن الكريم .

---

(١) هود : الآيتان (٨٢،٨٣).
(٢) هود : الآيات (١٠٠- ١٠٣) .

المبحث الثالث

مقاصد القرآن الكريم في التشريع

إن القرآن الكريم هو مصدر التشريع، فمنه تستمد الأحكام العامة والخاصة، وفي ذلك يقول ابن عاشور– رحمه الله :

"التشريع، وهو الأحكام خاصة وعامة، قال تعالى: {إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾} [سورة النساء:١٠٥]. (١)، {وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾} [سورة المائدة:٤٨]. (٢) ، ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعًا كليًّا في الغالب، وجزئيًّا في المهم، فقوله: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ (٣) ، وقوله: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (٤) المراد بهما إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس. قال الشاطبي: لأنه على اختصاره جامع، والشريعة تمت بتمامه، ولا يكون جامعاً لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية"(٥).

---

(١) النساء : الآية (١٠٥).
(٢) المائدة (٤٨).
(٣) النحل :الآية (٨٩).
(٤) المائدة : الآية (٣).
(٥) التحرير والتنوير ١/٤٠.

ويقول العلامة محمود شلتوت- رحمه الله :

" إن مقاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث : ناحية العقيدة ، وناحية الأخلاق، وناحية الأحكام .

أما الأحكام : فهي ما بينه الله في كتابه ، أو بين أصوله من النظم التي يجب اتباعها ، في تنظيم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقته بأخيه الإنسان ، وتشمل:

أحكام الصلاة والزكاة ، والصوم ، والحج ، واليمين ، والنذر ، وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة العبادات التي تغذي الإيمان ، وتنمي ثمراته الطيبة ، وتشمل:

أحكام الزواج والطلاق ، وما يتبعهما من مهر ونفقة ، ورضاعة ونسب ، وعدة ، ووصية ، وإرث ، وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة الأحوال الشخصية، أو أحكام الأسرة وتشمل : أحكام البيع والإجارة ، والرهن ، والمداينة ، وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة المعاملات المالية ، وتشمل : أحكام الجنايات والجرائم، كالقتل، والسرقة ، والإفساد في الأرض ، والزنا ، والقذف، وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة العقوبات، وتشمل : أحكام الحرب والسلم ، وما يتبعهما من غنائم وأسرى، ومعاهدات ، وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة الأحكام الدولية العامة "[1]؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر :

قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠} [سورة النساء:٢٩-٣٠]. [2].

(١) إلى القرآن الكريم ، للعلامة محمود شلتوت، ص٥،٦.

(٢) النساء : الآيتان (٢٩،٣٠).

يقول ابن عاشور – رحمه الله :

"استئناف من التشريع المقصود من هذه السورة. وعلامة الاستئناف افتتاحه بـ (يا أيها الذين آمنوا)، ومناسبته لما قبله أن أحكام المواريث والنكاح اشتملت على أوامر بإيتاء ذي الحق في المال حقه، كقوله: {۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾} [سورة النساء: ٢٤] (١)، فانتقل من ذلك إلى تشريع عام في الأموال والأنفس.

وقد تقدم أن الأكل مجاز في الانتفاع بالشيء انتفاعًا تامًّا، لا يعود معه إلى الغير، فأكل الأموال هو الاستيلاء عليها بنية عدم إرجاعها لأربابها، وغالب هذا المعنى أن يكون استيلاء ظلم، وهو مجاز صار كالحقيقة"(٢).

ثم قال ابن عاشور : "هذه الآية أصل عظيم في حرمة الأموال"(٣)

– ولا يفوتنا ما قاله ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: **{إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن**

(١) النساء : الآية (٢٤).

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/٥.

(٣) المرجع السابق ٢٤/٥.

قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾} [سورة المائدة: ٣٣-٣٤]. [١].

قال ابن عاشور :

"تخلص إلى تشريع عقاب المحاربين، وهم ضرب من الجناة، بجناية القتل. ولا علاقة لهذه الآية ولا التي بعدها بأخبار بني إسرائيل "[٢].

- وكذلك قوله تعالى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾} [سورة المائدة: ٤٥]. [٣] .

يقول ابن عاشور- رحمه الله :

"والكتب هنا مجاز في التشريع والفرض بقرينة تعديته بحرف (على) ، أي أوجبنا عليهم فيها، أي في التوراة مضمون أن النفس بالنفس، وهذا الحكم مسطور في التوراة أيضًا، كما اقتضت تعدية فعل كتبنا بحرف (في)، فهو من استعمال اللفظ في حقيقته، ومجازه ،....ويجوز أن يقصد من ذلك أيضًا تأييد شريعة الإسلام؛ إذ جاءت بمساواة القصاص، وأبطلت التكايل في الدماء ، الذي كان في الجاهلية وعند اليهود. ولا شك أن تأييد الشريعة بشريعة أخرى يزيدها قبولاً في النفوس، ويدل على أن ذلك الحكم مراد قديم لله- تعالى- وأن المصلحة ملازمة له، لا تختلف باختلاف الأقوام والأزمان؛ لأن العرب لم يزل في نفوسهم حرج من مساواة الشريف الضعيف في القصاص"[٤] .

---

(١) المائدة :الآيتان (٣٣،٣٤).
(٢) التحرير والتنوير ١٨٠/٦.
(٣) المائدة :الآية (٤٥).
(٤) التحرير والتنوير ٢١٣/٦،٢١٥،٢١٦.

وغير ذلك كثير من الآيات الدالة على أن من مقاصد القرآن الكريم تشريع الأحكام سواء الخاصة أو العامة، مثل :

- قول الله تعالى: {وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾} [سورة البقرة:٤٣]. (١) .

- وقول الله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾} [سورة البقرة:١٨٣-١٨٥]. (٢).

- و قوله تعالى: {ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا

(١) البقرة : الآية (٤٣).

(٢) البقرة : الآيات (١٨٣-١٨٥).

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾} [سورة البقرة: ٢٢٩-٢٣٠]. (١).

- وقوله تعالى: { وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾} [سورة التوبة:٣-٦]. (٢).

* *

(١) البقرة :الآيتان(٢٢٩،٢٣٠).

(٢) التوبة : الآيات (٣-٦).

المبحث الرابع

مقاصد القرآن الكريم في التحذير والتبشير

إن القرآن الكريم مليء بالآيات الدالة على الوعظ والإنذار والتبشير، والترهيب والترغيب؛ مما يجعل القارئ أو السامع لكتاب الله – تعالى – يتبين له أن هذا من مقاصد القرآن الكريم، ومما يدلل على ذلك قوله تعالى: {حٰمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾} [سورة فصلت: ١-٤]. [(١)].

وفي ذلك يقول ابن عاشور– رحمه الله :

"المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب"[(٢)].

ويضرب لذلك الأمثلة في تفسيره التحرير والتنوير، فيقول– رحمه الله – في تفسير قول الله تعالي: {لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾} [سورة يس: ٧٠]. [(٣)] .

"لتنذر من كان حيًّا، فيزداد حياة بامتثال الذكر فيفوز، ومن كان ميتًا فلا ينتفع بالإنذار فيحق عليه القول، كما قال تعالى في أول السورة: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾} [سورة يس: ١١]. [(٤)] ، فجمع له بين الإنذار ابتداءً والبشارة آخرًا.

---

(١) فصلت : الآيات (١-٤).
(٢) التحرير والتنوير ٤١/١.
(٣) يس: الآية (٧٠).
(٤) يس: الآية (١١).

والقول: هو الكلام الذي جاء بوعيد من لم ينتفعوا بإنذار الرسول- صلى الله عليه وسلم- والمراد بالكافرين: المستمرون على كفرهم، وإلا فإن الإنذار ورد للناس أول ما ورد وكلهم من الكافرين ، وفي ذكر الإنذار عود إلى ما ابتدئت به السورة .

فهو كرد العجز على الصدر، وبذلك تم مجال الاستدلال عليهم وإبطال شبههم، وتخلص إلى الامتنان .

- وفي سورة "ق" يذكر ابن عاشور - رحمه الله - أن من أغراضها :

- الوعيد بعذاب الآخرة ابتداء من وقت احتضار الواحد، وذكر هول يوم الحساب.

- ووعد المؤمنين بنعيم الآخرة"[1].

- قال تعالى: {وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾} [سورة ق:١٩-٣٥]. [2].

(١) التحرير والتنوير ٢٧٥/٢٦.
(٢) ق: الآيات (١٩-٣٥).

كما يوضح ابن عاشور – رحمه الله – جانبًا من المقاصد العامة للقرآن الكريم وهو يفسر قول الله تعالى : {إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾} [سورة الذاريات: ١٥-١٩]. (١)، وهو النذارة والبشارة فيقول :"اعتراض قابل به حال المؤمنين في يوم الدين، جرى على عادة القرآن في اتباع النذارة بالبشارة، والترهيب بالترغيب.

– ونختم بما ذكره ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى :

{أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾} [سورة البقرة:٢٥٨](٢).

وهو يشير إلى مجادلة المشركين للنبي – صلي الله عليه وسلم – وفي ذلك إشارة إلى مقصد عظيم من المقاصد العامة للقرآن الكريم، فيقول :

"والمقصود من هذا تمثيل حال المشركين في مجادلتهم النبي – صلى الله عليه وسلم – في البعث بحال الذي حاج إبراهيم في ربه، ويدل لذلك ما يرد من التخيير في التشبيه في قوله: {أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ

(١) الذاريات :الآيات (١٥-١٩).

(٢) البقرة : الآية (٢٥٨).

يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾} [سورة البقرة:٢٥٩][1]"[2] .

* *

(١) البقرة : الآية (٢٥٩).

(٢) التحرير والتنوير ٣/٣١.

الخاتمـة

الحمد لله الذي وفقني لإتمام هذا العمل ، سائلا الله أن يجعله خالصا لوجه الكريم، وأن ينفع به المسلمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، نبينا محمد عليه وعلى أصحابه أجمعين.

وفي الختام أكد البحث على نتائج عدة، وهي:

١- علم مقاصد السور يُعين على فهم كتاب الله فهما صحيحا، ويعين على استخراج دقائق معانيها وتدبرها ، فمقصد السورة هو أصل معانيها .

٢- إن تعليل الأحكام الشرعية بجلب المصلحة ودرء المفسدة لإعلام البشر بأن تحقيق المصالح هو مقصود الإسلام ، وأن الأحكام شرعت لهذا الغرض.

٣- كشفت الدراسة عن أن النص القرآني قد يكون له معنى ظاهر لكنه غير مقصود ، بينما هناك معنى آخر غير ظاهر لكنه مقصود ، وهذا لا يأتي إلا بالتدبر والتعمق في النص القرآني .

مصادر البحث

- الأعلام ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين ، بيروت– لبنان ، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م .
- إلى القرآن الكريم، للعلامة محمود شلتوت ، الناشر : دار الشروق ، د ط ، ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م .
- التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور، دار التونسية للنشر ، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- فضائل القرآن، أبو عبيد بن سلام، تحقيق/ مروان العطية وآخرون، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥.
- القاموس المحيط ، محمد بن يعقوب الفيروز آبادى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت– لبنان ، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ .
- كشف اصطلاحات الفنون: محمد بن التهانوي ، تحقيق/ علي دحروج ، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م.
- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، دار صادر – بيروت ، الطبعة الأولى، (ب.ت).
- معاني القرآن ، أبو زكريا الفراء: تحقيق/ أحمد يوسف النجاتي ، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر.
- معاني القرآن، أبو الحسن الأخفش، تحقيق/ هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى،١٤١١ هـ/١٩٩٠ م.
- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.

* * *